شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١٢)

فسيذكر الشيخ رحمه الله جملة أو شيئاً من هذه النصوص.

قال رحمه الله: [فالذي يقدر على النزول يوم القيامة من السموات كلها ليفصل بين عباده قادر أن ينزل كل ليلة من سماء إلى سماء، فإن ردوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في النزول، فماذا يصنعون بقول الله عز وجل تبارك وتعالى؟

حدَّثنا عمرو بن عون الواسطي، (قال): أنبأنا أبو عوانة، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، قال: أشهد على أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أنَّهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: {إنَّ الله يمهل حتى إذا ذهب ثلث الليل هبط فقال: من تائب فيُتاب عليه؟ من داع فيُستجاب له؟ من مستغفر؟ من مذنب؟ من سائل فيعطى؟}].

هذا حديث صحيح.

[حدَّثنا يحيى بن بكير المصري، (قال): حدَّثنا مالك وهو ابن أنس، عن ابن شهاب، عن أبي عبد الله الأغر، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ينزل

ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني أستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟}.

قال أبو سعيد: وزادني فيه أحمد بن صالح، عن ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، بإسناده.

قال: وقال هشام الدستوائي: عن يحيى وهو ابن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، أنَّ رفاعة الجهني حدَّثه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {إذا مضى ثلث الليل، أو شطر الليل، أو ثلثا الليل، يتنزل الله إلى سماء الدنيا، فيقول: لا أسأل عن عبادي أحداً غيري، من يستغفرني أغفر له؟ من يدعوني أستجيب له؟ ومن يسألني أعطيه؟ حتى ينفجر الصبح}.

حدَّثنا سعيد بن الحكم عن[1] أبي مريم المصري، (قال): أنبأنا الليث يعني ابن سعد، (قال): حدَّثني زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {إنَّ الله تبارك وتعالى ينزل في ثلاث ساعات من الليل يفتح الذكر، فينظر الله في الساعة الأولى منهنَّ في الكتاب الذي لم يره غيره، فيمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن، وهي داره التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، وهي مسكنه، ولا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاثة: النبيين، والصديقين، والشهداء، ثم يقول: طوبى لمن دخلك، ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى السماء الدنيا بروحه وملائكته، فتنتفض، فيقول: قومي بعزتي، ثم يطلع إلى عباده، فيقول: هل من مستغفر أغفر له؟ وهل من داع أجيب؟ حتى تكون صلاة الفجر، ولذلك يقول: ((وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا))[الإسراء:٧٨]، يشهده الله وملائكة الليل والنهار}].

[1] لعلها: بن.

هذا الحديث أشار إلى نكارته، قال: هذا حديث منكر، وسببه محمد بن زيادة، قال عنه ابن الجوزي: إنَّه صنع هذا الحديث. وفيه ألفاظ منكرة كما لا يخفى. ماذا عندك؟

....

فقط قال: ضعيف؟ ابن الجوزي ذكره في "العلل المتناهية"، وكذلك العقيلي ضعَّفه، على كلٍّ حال واضح، وفيه ألفاظ منكرة كقوله: (وهي مسكنه لا يسكنها معه من بني آدم، ويقول: هي داره)، ونحو هذا، هذا لم يُتابَع عليه، وقال العقيلي: الحديث في نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا ثابت فيها أحاديث صحاح، إلا أنَّ زيادة هذا جاءت في حديثه بألفاظ لم يأت بها الناس، ولا يتابعه عليها منهم أحد. الحمد لله في الأحاديث الصحاح غنية عن هذا الحديث المنكر.

[حدَّثنا حفص بن عمرو[1] النمري أبو عمر الحوضي، (قال): حدَّثنا هشام وهو الدستوائي، عن يحيى وهو ابن أبي كثير، عن أبي جعفر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {إذا بقي – أو قال: مضى – ثلث الليل ينزل الله إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسترزقني فأرزقه؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستكشف الضر أكشف عنه؟ حتى ينفجر الصبح}.

حدَّثنا عمرو بن عون الواسطي، (قال): أنبأنا خالد يعني عبد الله، عن الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إنَّ الله يفتح أبواب السماء في ثلث الليل، فيهبط إلى السماء الدنيا، فيبسط يديه، فيقول: ألا عبد يسألني فأعطيه؟ إلى طلوع الفجر}.

[1] لعلها: عمر.

حدَّثنا عبد العزيز بن يوسف الحراني أبو الأصبغ، (قال): حدَّثني محمد يعني ابن سلمة الحراني، عن محمد بن إسحاق، عن سعيد المقبري، عن عطاء، مولى أم صبية، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كلِّ صلاة، ولأخرت العشاء الآخرة حتى يذهب ثلث الليل، فإنَّه إذا ذهب ثلث الليل الأول هبط الله إلى السماء الدنيا، فلا يزال بها حتى يطلع الفجر، يقول قائل: ألا من سائل فيعطى؟ ألا من داع فيستجاب له؟ ألا من مريض يستشفي فيشفى؟ ألا من مذنب يستغفر فيغفر له؟}.

حدَّثنا عمرو بن محمد الناقد، عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن ابن إسحاق، بإسناده نحوه.

قال عمرو: وحدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، (قال): حدَّثني أبي، عن محمد بن إسحاق قال: وحدَّثني عمي عبد الرحمن بن يسار، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حدَّثنا موسى بن إسماعيل، (قال): حدَّثنا أبو عوانة، عن طارق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال: إنَّ الله يمهل حتى إذا مضى ثلث الليل هبط إلى سماء الدنيا، ثم قال: هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل يعطى؟

حدَّثنا الزهراني أبو الربيع، (قال): حدَّثنا حماد يعني ابن زيد، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، قال: إذا مضى ثلث، أو: بقي نصفٌ[1]، ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا، فيقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟].

[1] لعل العبارة: نصف الليل.

هذه الأحاديث في كثير منها مقال من حيث الثبوت، لكن كما أسلفنا قد صحَّت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في إثبات هذا الوصف وصف النزول، وليس في إثبات وصف النزول شيء من النقص بأيِّ حال، فإنَّ كلَّ ما أثبت الرب لنفسه من الصفات فهو صفة كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

واعلموا أنَّ أهل السنة قد أجمعوا على إثبات صفة النزول لله سبحانه وتعالى دون تأويل، حتى إنَّ منهم من قال: ينزل بذاته، ومن عبَّر بهذا التعبير إنَّما أراد به التحقيق، والصواب أنَّه يكتفى بإثبات النزول وإسناده إلى الرب سبحانه وتعالى دون الحاجة إلى هذه الإضافة، لأنَّ مجرد الإسناد إلى الله سبحانه وتعالى كاف في إثبات هذا الوصف، ولما مرَّ الإمام أحمد رحمه الله بأحد الوعاظ وهو يعظ في المسجد ويقول: ينزل ربنا، ثم أتبعها بعبارة من عنده بلا كذا أو بلا كذا، وجم الإمام أحمد ثم قال لحنبل، أظنه حنبل أو صالح كان معه، قال: ارجع بنا إلى هذا المتهوك، فرجع إليه وقال: يا هذا، قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمره بأن يلتزم بالنص الوارد، وهذا هو الذي ينبغي، فإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أفصح الناس حديثاً وأبينهم بياناً، فلا حاجة للتعقب، غير أنَّ بعض أمور المناظرات قد تحتاج إلى عبارات توضيحية، لكن مقام التقرير كما بيَّنا آنفاً غير مقام المحاجة، هذا شيء، أما المخالفون لأهل السنة فإنَّهم شرقوا بهذا النص، وغصوا به، وقالوا: لا يمكن أن يضاف النزول إلى الله عز وجل، شأنهم في هذا شأنهم في جميع الصفات الفعلية والخبرية، وطفقوا يبحثون له عن تأويلات متعسفة، فقال بعضهم: {ينزل ربنا}، أي: المراد ينزل أمر ربنا، وبعضهم قال: أي تنزل رحمة ربنا، وبعضهم قال: ينزل ملك من ملائكة ربنا، هكذا بلا أثارة من علم، ولا دليل من كتاب ولا سنة، ولا قول صاحب، ولا قل تابع، وإنَّما محض تحكم وتشهي من عند أنفسهم، ما حملهم على ذلك إلا المقدمات الفاسدة، ولا شك ببطلان هذا المسلك، وبطلانه من وجوه عدة:

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

أولها: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أسند النزول إلى الله، ولو كان نزول أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته لبيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم ولا ترك الأمر ملتبساً على الأمة.

ثانيها: أنَّ صنيعهم هذا يقتضي أنَّ في الكلام حذفاً، والأصل أنَّ الكلام فيه حذف وإلا ما فيه حذف؟ الأصل عدم الحذف، ومسلكهم هذا يقتضي أنَّ في الكلام حذف، فهذا خلاف الأصل.

الأمر الثالث: أنَّه يلزمهم لوازم فاسدة على مسلكهم هذا، منها: أنَّه لو كان الذي ينزل أمره أو رحمته لكان منتهى نزوله إلى سماء الدنيا، وأيُّ فائدة لرحمة لا تصل إلى العباد، وإنَّما يكون منتهاها السماء الدنيا، لا فائدة للعباد من ذلك، لأنَّه أخبر أنَّ النزول يكون إلى سماء الدنيا.

ثم أيضاً يقال: لو كان النازل هو أمره فإنَّه لا يختص في هذا الوقت من الليل، فإنَّ أمره لا يزال ينزل كل ساعة، بل كل لحظة، فهو لا يختص بالثلث الأخير من الليل، فكيف يُحمل على نزول أمره.

ثم يقال ثالثاً في الرد على من زعم أنَّ النازل ملك من ملائكته: لا يتصور أن يصدر هذا الكلام من ملك، هل يعقل أنَّ ملكاً من الملائكة يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟ هذه من خصائص الرب سبحانه وتعالى، فلا يمكن أن يضاف ذلك إلى ملك من ملائكته، وبهذا يتبيَّن لكم أنَّ كل ما يدعيه المؤولون القائلون بالمجاز أنَّه يتطرق إليه من اللوازم الفاسدة ما يدلُّ على فساد الملزوم، وينكشف تلبيسهم، فلا يمكن أن يصح ويستقيم الكلام، وإنَّما يصح ويستقيم بإثبات ما أثبت الرب لنفسه، أو أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم، فلا يشقى المؤمن بهذه الأحاديث، فيعتقد المؤمن بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الأحاديث، وأنَّ الله سبحانه وبحمده ينزل نزولاً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته، لا يترتب عليه أي لازم فاسد، ويعرض هذه الأمور الثلاثة على عباده.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

ومن أعظم فوائد هذا الحديث: الأثر الإيماني الذي يقع في قلب المؤمن ويدرك به هذا الشرف العظيم وهذه الغنيمة الباردة التي تُنال بأسهل الأسباب، لكن مع ذلك فالمحروم منها كثير. نسأل الله أن يغفر لنا، حيث إنَّ الرب سبحانه ينزل ويعرض هذه المطالب العظيمة الثلاثة، ما هنَّ؟ {من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟} وهذه عند التأمل تبيِّن لنا أنَّ هذه الألفاظ يقع فيها تخصيص بعد عموم، لأنَّ قوله: {من يدعوني فأستجيب له؟} الدعاء في الأصل نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة، فلما أضاف إليه قوله: {من يسألني فأعطيه؟} دلَّ ذلك على أنَّ المراد في الجملة الأولى {من يدعوني فأستجيب له} دعاء العبادة، وما المقصود بدعاء العبادة؟ دعاء العبادة هو أن يناجي العبد ربه ويتملقه بذكر أسمائه وصفاته، كقول النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الليل: {اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السموات}، وفي لفظ: {قيام} أو {قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت فاطر السموات والأرض ومن فيهن}، فالدعاء هكذا بأن يذكر الإنسان لربه صفات الكمال ونعوت الجلال، هذه عبادة ولو لم يسأل شيئاً، فالله تعالى يحب أن يُحمد وأن يُثنى عليه كما بوَّب الإمام البخاري أو كما جاء في حديث {ليس أحد أحب إليه المدحة من الله سبحانه وتعالى}، فمما يتقرب به العبد إلى ربه ويبلغ به أعلى الرتب ويحصِّل به أعظم الأجور أن يثني على ربه بما هو أهله، هذا الأول.

النوع الثاني: السؤال، {من يسألني فأعطيه؟} ما منَّا من أحد إلا وله عند ربه حاجات من حاجات الدنيا والآخرة، فهذه ساعة ذهبية هذه ثلث الليل الآخر ساعة تغتنم للاطراح بين يدي الله، والاضطرار إليه، والافتقار إليه، فإنَّ الله سبحانه وتعالى إذا رأى عبده على هذه الحال أجاب دعاءه، ألم تروا أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب. يعني: أنَّ هذا من

دواعي الإجابة، انكسار العبد، لأنَّ المسافر يكون دائماً في حال الشعث والغبرة والانكسار والشوق إلى الأهل والشعور بالغربة، وهذا حال يقتضي الإجابة، فكذلك إذا كان الإنسان في ظلمة الليل وهدأته والناس نيام في فرشهم، وهو يناجي ربه، تضرعاً وخفية، خوفاً وطمعاً، فهذا من أعظم أسباب الإجابة.

ثم المطلب الثالث قوله: {من يستغفرني فأغفر له؟} فهذا لون من السؤال الخاص، وهو: طلب الستر والتجاوز عن الذنوب، إذ المغفرة معناه: الستر والتجاوز.

فهذا يبيِّن سعة فضل الله سبحانه وتعالى، وسعة رحمته، فقد وسعت كل شيء، وإغراؤه لعباده بسؤاله، فينبغي لنا جميعاً أن نعظ أنفسنا بهذه الموعظة، والله لو قيل للناس: إنَّ منحاً ستُفرَّق في ثلث الليل أو في نصف الليل لرأيت الناس قد اصطفوا طوابير، زرافات ووحداناً لكي يحصل أحدهم على لعاعة من الدنيا، فكيف والعرض من الله لا من العباد الذين يلحق في عطيتهم منَّة وكدر، بل هي من الله عز وجل الذي له الفضل المطلق، ثم أعطيات جزلة من خير الدنيا والآخرة.

فنسأل الله تعالى أن يحبب إلينا الإيمان، وأن يزينه في قلوبنا، وأن يكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأن يجعلنا من الراشدين.

وفي هذا القدر كفاية هذه الليلة، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.